الأفعال الكلامية في شعر نزار قباني

د. منال عبد القادر سعد الدِّين*

الملخَّص

يدرس البحث نظرية الأفعال الكلاميَّة في شعر نزار قبَّاني، فيتناول تعريف التَّداوليَّة والأفعال الكلاميَّة، ويُفرِّق بين أنواع الأفعال الكلاميَّة عند أوستن وسيرل، ويدرس الأفعال الكلاميَّة في الدِّراسات العربية لدى الأصوليين والنحاة والبلاغيين، ويُحلِّل ظاهرة الأفعال الكلاميَّة في شعر نزار قبَّاني من منظور أوستن وسيرل من خلال دراسة أصناف الأفعال الكلاميَّة عند سيرل وهي: الإخباريَّات والتَّوجيهيَّات والالتزاميَّات والتَّعبيريَّات والإعلانيَّات، وذلك في ضوء أقسام الفعل الكلامي لدى أوستن وهي: فعل القول، والفعل الإنجازي، والفعل التَّأثيري.

الكلمات المفتاحيَّة:

التَّداوليَّة، الأفعال الكلاميَّة، الإخباريَّات، التَّوجيهيَّات، الالتزاميَّات، التَّعبيريَّات، الإعلانيَّات.

* دكتوراه في اللغة العربية وآدابها (اللسانيَّات)

Speech acts in Nizar Qabani's Poetry

***Dr. Manal Abdulkader Sadiddin**

Abstract

The research studies the theory of speech acts in Nizar Qabani's poetry, deals with the definition of pragmatic and speech acts, distinguishes between the types of speech acts in Austin and Searle, and studies speech acts in the Arabic studies as addressed by legal theorists, grammarians, and rhetoricians, The phenomenon of speech acts in Nizar Qabbani's poetry is analyzed from the perspective of Austin and Searle by studying the types of speech acts in Searle, namely: assertives, directives, commissives, expressives and declaratives, Austin is: locutionary act, illocutionary act, perlocutionary act.

Keywords:

pragmatic, speech acts, assertives, directives, commissives, expressives, declaratives.

*phd in Arabic language and literature (linguistics)

1_ المقدِّمة:

إنَّ وظيفة اللغة لا تقف عند نقل المعلومات من المرسل إلى المُتلقِّي؛ فلا بدَّ لعملية النَّقل هذه من الإحاطة بكلِّ معطيات الحدث التواصلي لتتَّضح الدلالات والأغراض في ضوء السياق والمقام، ويُنجَز الإبلاغ والتَّأثير بين قطبي العملية التواصلية، وتتجلى قصدية المرسل وتتحقق مقبولية المتلقي، من هنا نشأت النَّظرية التداولية التي تُعنى بدراسة اللغة في سياقها التواصلي الاجتماعي، وهي تتقاطع مع ميادين معرفية عديدة مثل علم اللغة وعلم النص والفلسفة والبلاغة وعلم الاجتماع وعلم النَّفس ...إلخ.

وتُعدُّ نظرية الأفعال الكلاميَّة من أبرز مباحث التداوليَّة، وهي تنظر إلى الملفوظات على أنَّها إنجازات لا مجرَّد أقوال فقط، وقد أسسها أوستن ثم تطوَّرت فيما بعد من خلال باحثين آخرين كان أبرزهم غرايس وسيرل، وتتمثَّل جذورها في التراث العربي خصوصاً في مباحث الخبر والإنشاء.

يسعى هذا البحث إلى مقاربة ظاهرة الأفعال الكلامية في شعر نزار قباني من خلال تقسيمه محورين رئيسين: نعالج في المحور الأول ظاهرة الأفعال الكلاميَّة نظريَّاً من خلال تعريفها والتمييز بين أنواع الأفعال الكلامية لدى رواد هذه النظرية وهم أوستين وسيرل، بالإضافة إلى تأصيلها لدى التراثيين العرب القدماء من نحاة وبلاغيين وأصوليين ومفسرين، ثمَّ نُجري في المحور الثاني دراسةً تطبيقيةً لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في شعر نزار قبَّاني انطلاقاً من تقسيمات أوستن وسيرل وتصنيفاتهما.

2_ مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث الرئيسة في قلة الدِّراسات التي تناولت نظرية الأفعال الكلامية في شعر نزار قبَّاني، بالإضافة إلى عدم إمكانية التوفيق التَّام بين المقاربة العربية والغربية عند إجراء الدراسة التَّطبيقية؛ إذ لا يمكن إسقاط النظريات الغربية إسقاطاً كاملاً على الدراسات العربية التراثية في التَّحليل النَّصِّي لاختلاف التوجهات والمفاهيم والمنطلقات الفكرية والأهداف البحثية.

3_ أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيق أهداف محدَّدة، وهي:

1_ دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في شعر نزار قباني نظريَّاً وتطبيقيَّاً.

2_ إيضاح أثر السياق والقرائن ومُعطيات النص الشعري وملابساته في تحديد مقاصد الشَّاعر، والقوى الإنجازيَّة وآثارها في المُتلقِّين.

3_استكشاف الرسالة السَّامية التي تبنَّاها نزار قبَّاني في ديوانه "الشعر السياسي".

4_ تحديد الأفعال الكلاميَّة المُهيمنة في ديوان "الشعر السياسي" لنزار قباني، وعلاقة ذلك برسالته السَّامية في هذا الديوان.

4_ فرضيات البحث:

ينطلقُ البحث من الفرضيات الآتية:

1_ تأثير السياق والمقام والقرائن في تحديد القوى الإنجازية والأفعال التَّأثيرية.

2_ إمكانية تأصيل ظاهرة الأفعال الكلاميَّة في الدراسات العربية التراثية.

3_ إمكانية تحديد مقاصد الشَّاعر الرَّئيسة والثانوية (الضِّمنيَّة والمباشرة) من خلال دراسة الأفعال الكلامية في نصوصه.

5_ مصطلحات البحث:

يعتمد البحث عدداً من المصطلحات أبرزها:

التداولية، الأفعال الكلاميَّة، الفعل القولي، الفعل الإنجازي، الفعل التَّأثيري، الإخباريَّات، التَّوجيهيَّات، الالتزاميَّات، التَّعبيريَّات، الإعلانيَّات.

6_ الدراسات السَّابقة:

تناولت نظريةَ الأفعال الكلاميَّة دراساتٌ كثيرةٌ نظريّاً وتطبيقيّاً، وكان من أبرز هذه الدراسات:

1_ دراسة د.هشام عبد الله الخليفة في كتابه "نظرية الفعل الكلامي" :

يعتمدُ الباحث في كتابه هذا المنهج الوصفي والتَّاريخي والتَّداولي؛ فيتناول نظرية الفعل الكلامي في الدراسات الغربية عند أوستن ومن تبعه من تداوليين، ويُؤصِّل لهذه النظرية في الدراسات العربية التراثية عند الأصوليين والمتكلمين والبلاغيين والنحويين، ويبدو تركيزه على التراث العربي الإسلامي بصورة كبيرة في هذا الكتاب؛ إذ يؤكد بالدليل القاطع أن العرب والمسلمين هم من اكتشفوا هذه النظرية، لكنه لم يغفل دراسات أرسطو ومنطق اليونان في هذا المجال.

2_ دراسة د. محمود أحمد نحلة في كتابه "آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر":

يتناول الباحث في كتابه هذا عدة مباحث كان أوَّلها "الاتجاه التداولي في البحث اللغوي المعاصر"، فيعتمدُ فيه المنهج الوصفي والتاريخي والتداولي، ويتناول بدايةً النظرية التداولية من جهة تعريفاتها وأبرز أعلامها، ومباحثها الرَّئيسة وهي: الإشارة والافتراض السابق والاستلزام الحواري والأفعال الكلامية، وفي مبحث الأفعال الكلاميَّة يتناول المؤلف جهود أوستن وسيرل في هذه النظرية تناولاً تفصيليَّاً ثمَّ يتناول نظرية أفعال الكلام في الدراسات العربية لدى الأصوليين والنحويين والبلاغيين أيضاً تناولاً مُستفيضاً مستهلاً ذلك بسردٍ إيضاحيٍّ لعرفية الاستعمال ومقصد المتكلم اللذين يعدهما من أسس هذه النظرية،

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الباحث عرضَ جهود أوستن وسيرل مرَّتين، الأولى عندما تناول التداولية، والثانية عندما تناول نظرية أفعال الكلام عند العرب بعرضٍ مشابهٍ للعرض الأوَّل.

3_ دراسة د. مسعود صحراوي في كتابه "التداولية عند العلماء العرب":

يعتمدُ الباحث في كتابه هذا المنهج الوصفي والتَّاريخي والتَّداولي، ويخصص الفصل الأوَّل فقط للنظرية التداولية فيتناول فيه مفهوم التداولية وأبرز مباحثها وهي الافتراض المسبق والاستلزام الحواري ونظرية الملاءمة والفعل الكلامي، ويُعرِّج على جهود أوستن وسيرل في الفعل الكلامي، في حين يسعى في بقية الفصول إلى تأصيل نظرية الفعل الكلامي في الدراسات العربية التراثية من خلال جهود الأصوليين والبلاغيين والنحويين شارحاً خلال ذلك المفارقة بين مفهومي الخبر والإنشاء لدى هؤلاء العلماء.

4_ دراسة د. أحمد فهد صالح شاهين في كتابه "النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة":

يعتمدُ الباحث في كتابه هذا المنهج الوصفي والتَّاريخي والتَّداولي، ويبحث في الفصل الأول مفهوم التداولية ونشأتها وأركانها وصلتها بعلم التراكيب والدلالة والأسلوب، ويوضِّح في الفصل الثاني ملامح التداولية في الفكر البلاغي القديم فيدرس علاقة التداولية بعلم المعاني وعلم البيان وعلم النحو، وفي الفصل الأخير يدرس النظرية التداولية في العصر الحديث لدى مدرسة براغ ولندن والنحويين الجدد، كما يدرس التداولية لدى النحاة العرب المُحدَثين مثل أحمد المتوكل وتمام حسان وجعفر دك الباب.

7_ منهج البحث:

يعتمدُ البحث المنهج الوصفي والنَّظريَّة التَّداوليّة في دراسة ظاهرة الأفعال الكلاميَّة ومقاربتها ومعالجتها وتحليلها في شعر نزار قبَّاني؛ لأنَّهما المنهجان الملائمان لطبيعة البحث وآليَّاته وأهدافه، فقد وُظِّفَ المنهج الوصفي في وصف ظاهرة الأفعال الكلاميَّة وتحليلها من خلال جمع المعلومات المُتعلِّقة بظاهرة الأفعال الكلاميَّة من المصادر والمراجع ذات الصِّلة، ثم دراسة تلك المعلومات وتفسيرها وتحليلها ومناقشتها وتطبيقها على شعر نزار قبَّاني، كما وُظِّفَت النَّظريَّة التَّداوليّة في دراسة المعاني والأغراض والدَّلالات والقرائن في سياق الاستعمال ومعطيات الخطاب بغية استكشاف مقاصد المرسل والقوى الإنجازيَّة والأفعال التَّأثيرية في المتلقِّي.

8_ عرض البحث والمناقشة والتحليل:

أ_ الدِّراسة النَّظريَّة:

1_ التَّداوليَّة pragmatic:

لمَّا كان ظهور أي تيَّار فكري أو منهج أو مذهب يأتي غالباً ردَّة فعل على الانتقادات المُوجَّهة لما سبقه، فقد ظهر المنهج التَّداولي نتيجةً لعدم كفاية الدِّراسات الشَّكليَّة في مقاربة اللغة ومعالجتها معالجةً تجريديَّةً بحتةً ترتكزُ على المقدرة الذهنيَّة، وإعراضها عن توظيف اللغة في سياق استعمالها التَّواصلي[1].

يرجع استخدام مصطلح التَّداولية إلى الفيلسوف تشارلز موريس الذي عُنيَ بهيكلة علم العلامات أو السيميائيَّة؛ فميَّز بين ثلاثة مستويات هي:

1_ النحو أو التَّراكيب syntax: ويُعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات اللغويَّة.

2- الدلالة semantic: وتُعنى بدراسة العلاقات بين العلامات اللغوية وما تُؤول إليها.

3_ التَّداوليَّة pragmatics: وتُعنَى بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها.[2]

وقد اقتحمت التَّداوليَّة ميدان البحث اللغوي المعاصر بعد أن تمَّ تطويرها على يد فلاسفة أكسفورد الثلاثة أوستن وسيرل وغرايس.[3]

ويُقصَد بالتَّداوليَّة pragmatic: دراسة خصائص اللغة خلال الاستعمال من جهة الدَّوافع النَّفسيَّة عند المُتكلِّمين وردود فعل المخاطبين والأنماط المُتَّبعة في الخطاب وموضوع الخطاب[4]، بالإضافة إلى تحليل الأحداث اللغويَّة ووظائف النَّص/الخطاب وخصائصه خلال العمليَّة التَّواصليَّة[5]. وتُعنَى التَّداوليَّة بدراسة أربعة مجالات وهي: الأفعال الكلامية، والاستلزام الحواري، والافتراض السَّابق، والإشارة[6].

---

[1] _ استراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م، ص 21

[2] _ المرجع نفسه، ص21،يُنظَر أيضاً:

_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م، ص9

[3] _ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص9

[4] _ المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيّات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الدار البيضاء، 2002م، ص 116

[5] _ علم النَّص(مدخل متداخل الاختصاصات)، تون أ. فان دايك، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م، ص 114

[6] _ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص16

2_ الأفعال الكلاميَّة Speech Acts:

تُعدُّ الأفعال الكلاميَّة Speech Acts من أبرز مجالات الدَّرس التَّداولي، لدرجةٍ يُنظَر فيها إلى ترادفهما في المراحل الأولى للتَّداوليَّة، فقد مثَّلت الأفعال الكلاميَّة بؤرةً جوهريَّةً في دراساتٍ تداوليَّةٍ كثيرةٍ، ويُقصَدُ بالفعل الكلامي: كلُّ ملفوظٍ يرتكزُ على منظومةٍ شكليَّةٍ دلاليَّةٍ إنجازيَّةٍ تأثيريَّةٍ، فهو يُعدُّ نشاطاً ماديّاً نحويّاً يستخدم أفعالاً قوليَّةً بغية تحقيق أغراضٍ إنجازيَّةٍ (كالأمر والطَّلب والوعد والتَّهديد) وأهدافٍ تأثيريَّةٍ تتعلَّق بردود أفعال المتلقِّين (كالقبول والرَّفض)، بمعنى أنَّهُ يهدف إلى التَّأثير في المخاطب مؤسَّساتيّاً واجتماعيّاً لإنجاز أمر ما.[1]

ترجع إرهاصات البحث في نظرية الأفعال الكلاميَّة إلى أوستن Austin "أستاذ الفلسفة في جامعة أكسفورد"، وسيرل Searle "أستاذ الفلسفة في جامعة بركلي بكاليفورنيا"، فقد أسَّسا للتداوليَّة في مجال فلسفة اللغة العاديَّة، وطوَّرا مفهوم "العمل اللغوي" من منظور المنطق التَّحليلي[2].

وقد فرَّق أوستن بين قسمين من الأفعال هما:

1_ الأفعال الإخباريَّة Constative: يُمكن وصف هذه الأفعال بأنَّها صادقة أو كاذبة، وتقوم بوصف أحداث العالم الخارجي.

2_ الأفعال الأدائيَّة Performative: لا يُمكن وصفها بأنَّها صادقة أو كاذبة، وتكون موفَّقة أو غير موفَّقة، ويندرج ضمنها الوعد، والنصح، والتَّسمية، والرهان، والاعتذار، والوصية[3].

فيما بعد صنَّف أوستن الأفعال الكلاميَّة باعتبار قوَّتها الإنجازيَّة وفق خمسة أصناف وهي:

1_ أفعال الأحكام (الحكميَّات) verdictives: وتتمثَّل في الأحكام الصَّادرة عن قاضٍ أو حكَمٍ، مثل التَّبرئة والإدانة، والتَّحليل والوصف، والتَّصنيف والتَّقويم والتَّشخيص، والإحصاء وإصدار الأمر...إلخ

2_ أفعال القرارات (التَّنفيذيَّات) Exercitives: وتتمثَّل في القرارات المُتَّخذة ومتابعة الأعمال مثل: التَّعيين، والتَّوصية والطَّرد، والعزل والحرمان، والإذن.

---

[1] _ التَّداوليَّة عند العلماء العرب((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي))، مسعود صحراوي، دار الطَّليعة للطباعة والنَّشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005م، ص40

[2] _ التَّداوليَّة من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتَّوزيع، اللاذقيَّة، الطبعة الأولى، 2007م، ص20

[3] _ يُنظَر:
_ النظريَّة البراجماتيَّة اللسانيَّة (التَّداوليَّة)، د.محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2013م، ص 97
_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص45

3_ أفعال التَّعهُّد (الوعديَّات) Commissives: وهي الأفعال التي يتعهَّد فيها المُتكلِّم فيلتزم بأمر ما مثل: التَّعاقد، والموافقة والوعد، والقسم، والضَّمان والعزم والنيَّة.

4_ أفعال السُّلوك (السلوكيَّات) Behavitives: وتأتي هذه الأفعال ردَّ فعلٍ لفعلٍ آخر؛ إذ تتفاعل مع أفعال الآخرين، مثل: النَّقد والمواساة والاعتذار والتَّهنئة والشكر والتَّحدي والتَّرحيب والتَّحريض.

5_ أفعال الإيضاح (العرضيَّات) Expositives: وتأتي لبيان وجهة نظر أو رأي وتختصُّ بالعرض مثل: التَّخطئة والاعتراض والموافقة والتَّصويب والإنكار والتَّشكيك والنَّفي والتَّأكيد والتَّفسير والتَّوضيح والإحالة والوصف والمُحاجَّة[1].

وقد خلُصَ أوستن في نهاية بحثه إلى تقسيم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال فرعيَّة يمكن إجمالها وفق الآتي:

1_ **فعل القول (الفعل اللفظي) locutionary act** : وهو قول شيء مُعيَّن أو: التَّلفُّظ بكلام ما.

2_ الفعل المُتضمَّن في القول (الفعل الغرضي أو الإنجازي) illocutionary act : ويتحقَّق بإنجاز فعل اجتماعي ضمن قول شيء ما.

3_ الفعل النَّاتج عن القول (الفعل التَّأثيري) perlocutionary act : وتُمثِّله الآثار المُترتِّبة على قول شيء ما[2].

تُعدُّ جهود أوستن نقطة انطلاقٍ لنظرية الأفعال الكلاميَّة، وخصوصاً مفهوم الفعل الإنجازي، إلَّا أنَّ إرساء دعائم هذه النَّظريَّة كان على يد جون سيرل وبخاصَّة فيما قدَّمه حول الفعل الإنجازي والقوَّة الإنجازيَّة، فقد أشار إلى أنَّ الفعل الإنجازي يمثِّل الوحدة الصغرى في عملية التَّواصل اللغويَّة، وأنَّ القوَّة الإنجازيَّة هي التي تحدِّد نوع الفعل الإنجازي النَّاجم عن نطق الجملة، وقد بحث في مستويات الاستعمال اللغوي ففرَّق بين المعنى الحرفي المباشر الذي يستخدم اللغة العاديَّة ذات المعنى المُحدَّد، والمعنى غير المباشر الذي يتطلَّب إعمال العقل فيه لأنه يتوارى خلف اللفظ، كما فرَّق سيرل بين الأفعال الإنجازيَّة

---

[1] _ يُنظَر:

_آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص48

_ التَّداوليَّة من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، ص62

[2] _ يُنظَر:

_التَّداوليَّة عند العلماء العرب((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي))، مسعود صحراوي، ص41_43

_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص70

المباشرة التي يتطابق فيها ما يقوله المتكلِّم مع ما يعنيه، والأفعال الإنجازيَّة غير المباشرة التي لا يتطابق فيها مراد المتكلِّم مع مقولته الحرفيَّة[1]، وقد صنَّف سيرل الأفعال الكلاميَّة وفق خمسة أصناف وهي:

1_ الإخباريَّات (الإخبارات) Assertives: يتمثَّل الغرض الإنجازي فيها من خلال عرض المتكلِّم حدثاً محدَّداً بواسطة قضيَّة، وبهذا فإنَّ أفعال الإخباريَّات تحتمل الصدق والكذب، وتكون المطابقة فيها موجَّهة مباشرةً من الكلمات إلى العالم، بمعنى أنَّ الكلمات تتطابق مع العالم.

2_ التَّوجيهيَّات (الطَّلبيَّات/الأوامر) Directives: يتمثَّل الغرض الإنجازي فيها من خلال توجيه المخاطَب من قِبل المُتكلِّم إلى القيام بفعلٍ مُحدَّد، وتكون المُطابقة فيها مُوجَّهة من العالم إلى الكلمات، بمعنى أنَّ العالم يُطابق الكلمات، ويندرج ضمن التَّوجيهيَّات أفعال النصح والأمر والتَّشجيع والاستعطاف.

3_ الالتزاميَّات (الوعديَّات) Commissives: يتمثَّل الغرض الإنجازي فيها من خلال التزام المتكلِّم بالقيام بفعل محدَّد في المستقبل، وتكون المُطابقة فيها مُوجَّهة من العالم إلى الكلمات، ويُشتَرَطُ فيها صدق النيَّة، ويندرج ضمنها أفعال الوصيَّة والوعد.

4_ التَّعبيريَّات (الإفصاحات) Expressives: يتمثَّل الغرض الإنجازي فيها من خلال تعبير المتكلِّم عن الحالة النَّفسيَّة بشرط النيَّة الصَّادقة، وبهذا فالمطابقة في التَّعبيريَّات ليست موجَّهة ما بين الكلمات والعالم، بمعنى لا توجد مطابقة في هذا الصِّنف، ويندرج ضمنها المواساة والاعتذار والشكر والتَّهنئة.

5_ الإعلانيَّات (التَّصريحيَّات) Declaratives: يُرمَى من خلالها إلى إجراء واقعة، ويجب أن يتطابق محتواها مع العالم الخارجي، وتتطلب عرفاً غير لغويٍّ، وتكون المُطابقة فيها مُوجَّهة من العالم إلى الكلمات، ومن الكلمات إلى العالم، بمعنى أنَّ التَّوافق بينهما مباشر، ولا تتطلب شرط إخلاص[2].

يُلحَظُ أنَّ هذا التَّصنيف لسيرل يتشابه مع تصنيف أوستن للأفعال الكلاميَّة باعتبار قوَّتها الإنجازية، بمعنى أنَّ سيرل قام فقط بتطوير نظرية أوستن منطلقاً من الأسس النَّظريَّة ذاتها.

---

[1] _ يُنظَر:
_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص48_ 53
_ النظريَّة البراجماتيَّة اللسانيَّة (التَّداوليَّة)، د.محمود عكاشة، ص 107_108

[2] _ يُنظَر:
_ التَّداوليَّة من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، ص66
_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص51_52

3_ الأفعال الكلاميَّة في الدِّراسات العربيَّة:

إنَّ الباحث في تضاعيف مصنَّفات العلماء العرب القدماء من نحويين ولغويين وبلاغيين ومفسِّرين وأصوليين وقرَّاء يستطيع أن يستكشف بذوراً لنظرية الفعل الكلامي وملامحاً لنظريَّةٍ تداوليَّةٍ مُحكَمةٍ تُعنَى بالسياق الاجتماعي والثَّقافي والشَّرعي، وتبرز عنايتها بالسياق الاجتماعي من خلال اهتمامها بمعطيات المقام وملابسات العمليَّة التَّواصليَّة والقرائن غير اللفظيَّة مثل البيئة المكانية التي تكتنف الحدث اللغوي وأحوال المشاركين فيه، خصوصاً قطبي العملية التَّواصليَّة المتكلِّم والسَّامع[1]، ومن أبرز المصنَّفات التُّراثيَّة التي اكتنفت ملامحاً للنظريَّة التَّداوليَّة ونظرية الأفعال الكلاميَّة خصوصاً: أصول السَّرخسي، والرِّسالة للشَّافعي، والخصائص لابن جنِّي، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والبيان والتَّبيين للجاحظ، ومفتاح العلوم للسكَّاكي، وتفسير الرَّازي والإيضاح للقزويني[2].

أمَّا نظريَّة الأفعال الكلاميَّة فتتبلور جذورها التُّراثيَّة وتستبينُ أدواتها المنهجيَّة من خلال باب الخبر والإنشاء في علم المعاني وما دار حوله من مناقشاتٍ في كتب اللغة والبلاغة والنحو والفقه وأصول الفقه، وكانت هذه الظَّاهرة حقلاً مشتركاً بين تلك العلوم جميعها، فقد اهتم هؤلاء العلماء بقصدية المتكلِّم وعرفية الاستعمال في إطار دراستهم للأغراض البلاغيَّة للتَّراكيب ممَّا شكَّل معادلاً موضوعياً لاهتمامات نظرية الأفعال الكلاميَّة وتوجُّهاتها الحديثة[3]، وعلى الرَّغم من اختلاف المفسِّرين والأصوليين والنُّحاة والبلاغيين في هدف الدِّراسة وماهية النصوص المدروسة، فقد اتَّفقوا في العلاقة الجدليَّة بين النَّص ووظائفه وملابساته ومقامات إنجازه[4].

وقد عرف علماء العربية القدماء هذه النَّظريَّة بكل أبعادها وعلى الرَّغم من انبثاقها لدى العديد من العلماء آنذاك فإنَّ إرهاصاتها الأولى تعود إلى علماء الأصول؛ فقد كانوا علماء لغةٍ ومناطقة وقضاة وعملوا في الفقه واستخراج الأحكام من القرآن الكريم والحديث النبوي الشَّريف، وتوجيه الدَّلالات في نصوصهما،

---

[1] _ يُنظَر:

_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص88

_ نظرية الفعل الكلامي (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغويَّة في التراث العربي والإسلامي)، د.هشام عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2007م، ص225

[2] _ نظريَّة الأفعال الكلاميَّة بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداوليَّة، محمد مدور، مجلة الواحات للبحوث والدِّراسات، العدد 16، 2012م، ص52

[3] _ يُنظَر:

_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص88

_ نظريَّة الأفعال الكلاميَّة بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداوليَّة، محمد مدور، ص52

[4] _ لحظة ميلاد التَّداوليَّة (نظرية الأفعال الكلاميَّة)، مسعود صحراوي، دار التَّنوير، الجزائر، الطبعة الأولى، 2023م، ص 194

ممَّا اقتضى عنايتهم بالجوانب الفعلياتيَّة اللغويَّة، فاهتمُّوا بالتَّراكيب اللغويَّة والأغراض الإبلاغيَّة التَّواصليَّة النَّاجمة عنها وأثر السِّياق اللغوي وغير اللغوي في توجيه دلالات التَّراكيب، ودرسوا أساليب تأليف الكلام وأغراضه ومقاصده ووجوه استعماله والمعاني العديدة الناجمة عن تلك الوجوه، وتناولوا أنواع المعنى ودرسوا الوضع والعرف والتَّلويح والتَّعريض والقصد والمعنى النَّفسي، واكتشفوا أنَّ وظيفة اللغة لا تقتصر على التَّقرير أو الإخبار أو الوصف، بل هي أداةٌ للفعل أيضاً، كما اكتشفوا الإنجازيَّات بأنواعها وتحدَّثوا عن الصفة العرفيَّة لبعضها، وأدركوا عناصر الفعل الكلامي ((فعل القول، الفعل الكلامي، التَّأثير الكلامي))، وتبدو المفارقة بين دراساتهم هذه ودراسات التَّداوليين المعاصرين في المصطلحات المُستخدمة والجزئيَّات الفرعيَّة والشَّواهد التَّوضيحيَّة، ففي حين استمدَّ المعاصرون شواهدهم من الحياة اليوميَّة فقد استقاها الأصوليُّون من القرآن الكريم والحديث النَّبوي الشَّريف، أمَّا المصطلحات فقد أطلقوا على "أفعال الكلام والإنجازيَّات" مصطلح "الإنشاء" بنوعيه الطَّلبي وغير الطَلبي(الإيقاعي)، كما استخدموا مصطلح " إرادة الدَّلالة بالصِّيغة على الفعل" مقابل مصطلح "الفعل الكلامي" واستعملوا كذلك مصطلح " إرادة الفعل أو الأثر المطلوب" مقابل " التَّأثير الكلامي أو نتائج الكلام"، كما أطلقوا على "فعل الأمر" " إرادة المأمور به أو إرادة الامتثال" [1].

أمَّا النُّحاة فقد اهتمَّ بعضهم بمعاني الكلام وأساليبه وظروف إنتاج الخطاب وملابساته وأغراضه ودلالاته ومقاصد المتكلِّمين وعلاقتهم بالمخاطبين خلال العمليَّة التَّواصليَّة؛ فنحوهم لم يفصل بين مباني التَّراكيب ومعانيها، ولم يباعد بين بناء الجملة وظروف إنتاج ذلك البناء وملابساته؛ فهو يتمُّ بفعل منظومةٍ لغويَّةٍ تداوليَّةٍ من خلال ملفوظٍ معيَّنٍ ومتكلِّمٍ ومخاطبٍ معيَّنين في إطار مقامٍ معيَّنٍ لتحقيق مقاصدَ وأغراضٍ تواصليَّةٍ إبلاغيَّةٍ مُعيَّنةٍ، وقد قام هؤلاء النحاة بتقسيم الجملة إلى خبريةٍ وإنشائيَّةٍ، ومنهم من قسَّمها إلى خبريَّة وإنشائيَّة وطلبيَّة، لتختلف بناءً على هذه التَّقسيمات طبيعة التَّراكيب ووظائفها، فذلك التَّقسيم يُؤدِّي إلى اختلاف في الصِّيغ الشَّكليَّة من خبر واستفهام وأمر ونداء ونهي وتمنِّي، بالإضافة إلى اختلاف العلاقات التَّركيبيَّة النَّحويَّة التي تخضع لها هذه الصِّيغ من حذف وتقديم وتأخير وفصل ووصل، وعلاقة هذه الصِّيغ بعضها ببعض من خلال خروج دلالة تركيب إلى دلالة تركيب آخر، فقد بحث النحاة في

[1] _ يُنظَر:
_ نظرية الفعل الكلامي (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغويَّة في التراث العربي والإسلامي)، د. هشام عبد الله الخليفة، ص225_226
_ التَّداوليَّة عند العلماء العرب((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي))، مسعود صحراوي، ص130_ 133

خروج المعاني الأصليَّة والمباشرة للتَّراكيب إلى معانٍ ضمنيَّة وغير مباشرة واستلزاميَّة يحدِّدها السياق والمقام وظروف إنتاج النَّص وملابساته، وبهذا يتَّضح دور النُّحاة في تقعيد مفاهيم علم المعاني وتطبيقها في دراساتهم[1].

أمَّا البلاغيون فكانوا يرتكزون إلى مقاييس معيَّنة عند تصنيف أفعال الكلام "معاني الكلام"، خصوصاً عند تقسيمهم الكلام إلى قسميه الرَّئيسيين: الخبر والإنشاء، ويستبين إدراكهم للصفة الإنجازيَّة للإنشاء انطلاقاً من فهمهم لمعايير ذلك التَّصنيف، ولا بدَّ هنا من الإشارة إلى اعتراف البلاغيين بأسبقية الأصوليين في دراسة موضوع الخبر والإنشاء، ولا بدَّ كذلك من الإشارة إلى أنَّ البلاغيين قبل السَّكاكي وشُرَّاحهِ لم يستخدموا مصطلح إنشاء إلى أن استمدَّهُ الشُّراح من الأصوليين فظهر لدى القزويني والتَّفتازاني والسُّبكي...إلخ، فالأصوليون مع علماء الكلام كانوا سبَّاقين للاستعمال الإنشائي أو الإنجازي للكلام، من هنا فإنَّ مباحث علم المعاني مثل الخبر والإنشاء وغيرها لم يعرفها البلاغيون قبل تداولها لدى المتكلِّمين والأصوليين[2].

ويبدو أنَّ تأصيل نظرية الفعل الكلامي لدى البلاغيين العرب يرجع بدايةً إلى اهتمامهم بقضية اللفظ والمعنى، فالمفاضلة بين طرفي هذا الثنائي بلاغيّاً أدَّت إلى إدراكهم لمكوِّنات الفعل الكلامي لكن من منظورهم الخاص وبطريقة غير مباشرة، فقد ميَّزوا بين (المعنى الأوَّل) أي (فعل القول) أو (إرادة الصِّيغة) أو (أصل المعنى)، وبين (المعنى الثَّاني) أي (الفعل الكلامي) أو أغراض الكلام من أمر ونهي وتعظيم وتحقير ووعيد وتهديد، وقد شاع لديهم في هذا السِّياق مصطلحا (المعاني الأُول) و(المعاني الثَّواني) وقد اختلف مدلولهما ما بين علم البيان والمعاني، ويُذكَر أنَّ عبد القاهر الجرجاني كان أوَّل من استخدمهما وذلك في علم البيان تحت مُسمَّى (المعنى) و(معنى المعنى)، لكن لم يندرج استخدامهما لديه تحت ما يُسمى في نظرية أفعال الكلام ب(فعل القول) و(الفعل الكلامي)، بل كان أقرب إلى (المعنى الحقيقي) و(المعنى الكنائي) في نظرية التَّلويح[3].

---

[1] _ يُنظَر:

_ التَّداوليَّة عند العلماء العرب((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي))، مسعود صحراوي، ص174_176

_ التَّأصيل لأفعال الكلام في التراث اللغوي العربي، حليمة بو الرِّيش، مجلة AL-Andalus Magreb، جامعة cades، إسبانيا، العدد 25، 2018م، ص11_12، الموقع الالكتروني للمقال: http://portal.amelica.org/ameli/journal/475/4753034005/

[2] _ نظرية الفعل الكلامي (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغويَّة في التراث العربي والإسلامي)، د. هشام عبد الله الخليفة، ص226_ 239

[3] _ المرجع نفسه، ص422_423

ب_ الدِّراسة التَّطبيقيَّة:

تبقى الدِّراسة النَّظريَّة لأيَّةِ ظاهرةٍ قاصرةً عن إيضاحها وإدراك كنهها ومراميها واستيعاب أبعادها إذا لم تُسعَف بدراسةٍ تطبيقيَّةٍ تنقلها من السكون إلى الحياة، فكيف يكون الأمر إذاً ونحن نتناول الأفعال الكلاميَّة التي تنطلق أساساً من دراسة اللغة في استعمالها؟ من هنا كان لا بدَّ لنا من دراسة هذه الظَّاهرة نصيّاً علَّنا نستكشفها تطبيقيّاً ونقف على ما قَصُرَت عن إيصاله الدِّراسة النَّظريَّة، وقد توخَّينا دراستها في شعر نزار قبَّاني*؛ لأنَّ الشعر الحديث يمثِّلُ بيئةً خصبةً ملائمةً وسهلةً لتطبيق التَّداوليَّة من جهة؛ ولأنَّ لغته أقرب ما يمكن إلى اللغة اليوميَّة ممَّا يساعد في تحليل أفعال الكلام والتماس مقاصد المُرسل في نصِّه، بالإضافة إلى التقاء التَّداوليَّة والشعر الحديث في معالجة السِّياق الاجتماعي، ثم إنَّنا توجَّهنا إلى دراسة الأفعال الكلاميَّة وفق تصنيفات سيرل؛ لأنَّ نظريَّته تمثِّلُ مرحلةً متقدِّمةً وناضجةً على سابقه أوستن، كما اعتمدنا تقسيم أوستن الأخير الثلاثي للفعل الكلامي؛ لأنَّهُ الأنجع في تحليل الأفعال الكلامية واستكشاف قواها الإنجازيَّة وتأثيراتها على المتلقِّين.

1_ الإخباريَّات:

إنَّ القارئ لديوان "الأعمال السياسيَّة الكاملة لنزار قبَّاني" يلحظ هيمنة الأفعال الإخباريَّة قياساً ببقية الأفعال الكلاميَّة، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى الشَّخصيَّة الثَّائرة التي امتاز بها القبَّاني، فجاء شعره السياسي ليصدح بما يكتنه نفسه وتراه عيناه من حقائق أراد تقريرها وتوكيدها وبثَّها للمتلقي، فكانت الأفعال الإخبارية أداته النَّاجعة لنشر رؤيته والتَّعبير عن ثورته النَّابضة المُنتقِدَة لكلِّ ما خالف جوهره ومعتقدَهُ، ومن ذلك ما جاء في نصِّه "القصيدة .. والجغرافيا":

((في بلادِ الغربِ، يا سيِّدتي
يُولَدُ الشَّاعرُ حُرَّاً
مثلما الأسماكُ في عَرضِ البِحارْ
ويُغنِّي ..
بين أحضان البُحيراتِ،
وأجراسِ المَراعي،
وحقُولِ الجُلَّنارْ.

* _ سنقتصر على ديوان "الأعمال السياسيَّة الكاملة "، نزار قبَّاني، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، لبنان، الطبعة الثَّانية، 1999م، الجزء السادس.

... ولدينا
يُولَدُ الشَّاعرُ في كيسِ غُبارْ
ويُغنِّي لمُلُوكٍ من غُبارٍ
وخيولٍ من غبارٍ
وسيوفٍ من غبارٍ .
إنَّها مُعجزةٌ ..
أنْ يصنعَ الشِّعرُ من الليلِ نهارْ
إنَّها مُعجزةٌ ..
أنْ نزرعَ الأزهارَ،
ما بين حصارٍ، وحصارْ ..
نحنُ لا نكتبُ
_ مثلَ الشَّاعر الغربيِّ، شعراً _
إنَّما نكتبُ يا سيِّدتي،
صكَّ انتحارْ..))[1]

يُجري الشَّاعر في نصِّه هذا مقارنةً ما بين الشَّاعر الغربي والشَّاعر العربي من خلال مجموعةٍ من الأفعال الكلاميَّة، فعند حديثه عن الشَّاعر الغربي استخدم فعلي القول "يُولَد، يغنِّي" لقصدٍ في نفسه عبَّر عنه الفعل الإنجازي وهو تقرير حرية الشَّاعر الغربي والإعجاب بها، وجاءت القرائن السياقيَّة المقاليَّة لتكشف عن هذه القوى الإنجازية، اتَّضح ذلك بجعله الشاعر الغربي يُولَد حراً كالأسماك في عرض البحار، ويغني في رحاب الطَّبيعة، فهو يقرِّر ولادته وغناءه حراً بلا قيود، إلَّا أنَّ قصدية الشَّاعر لا تقف عند تقرير حريَّة الشَّاعر الغربي والإعجابِ بها، بل إنَّها ترمي لأبعدَ من هذا من خلال الأفعال التَّأثيرية لفعلي القول "يُولَد، يُغنِّي" التي تتبدَّى من خلال التَّحسُّر على هذه الحرية التي ينعم بها الشَّاعر الغربي منذ ولادته وخلال حياته أيضاً. ويأتي السياق اللاحق قرينةً دالةً على الفعل التَّأثيري "التَّحسُّر".

ويتناول الشَّاعر بالمقابل حال الشَّاعر العربي من خلال فعلي القول ذاتهما اللذين وظَّفهما آنفاً للشَّاعر الغربي وهما "يُولَد، يغنِّي"، فهل بقيت قوى الأفعال الإنجازية ذاتها أم أنَّها تغيَّرت هاهنا مع الشَّاعر العربي؟ يبدو أنَّ القوى الإنجازية لهذين الفعلين تتبَّدى كذلك في التَّقرير، ولكن تقرير الضَّعف والتَّقييد

[1] _ الأعمال السياسية الكاملة، نزار قبَّاني، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، لبنان، الطبعة الثَّانية، 1999م، الجزء السادس، ص160_162

والتَّكبيل، فالشَّاعر العربي لا يُولَدُ حراً، بل يُقيَّد بكيس ضعيف من غبار، فقد اجتمعت دلالة التَّقييد الضَّيِّق في الكيس مع دلالة الضَّعف في الغبار، وكل ما يُغنِّي له كذلك لا شأن له، فهو هباءٌ منثورٌ كالغبار، بمعنى أنَّ الشَّاعر العربي يُولَدُ مقيَّداً في نطاقٍ ضيِّقٍ لا قيمة لهُ، وكلُّ أشعاره تُنظَم لأشياءَ لا قيمة لها، ويبدو أنَّ الشَّاعر أراد هنا تحميل فعلي الولادة والغناء أبعاداً تأثيريَّة تتمثَّل في توبيخ الشَّاعر العربي من جهة، وتحريضهِ ليثورَ على واقعه الذَّليل من جهةٍ أخرى، وقد استعان لغاية هذا الفعل التَّأثيري التَّحريضي بالمقارنة التي أجراها ما بين الشَّاعر الغربي والعربي، وكأنَّهُ يخاطب الشَّاعر العربي سراً :" ثُر على واقعك، أُنظر لحالك ولحال الشَّاعر الغربي"، ففي هذين المقطعين نرى أنَّ النَّص يعوم على بنية عميقة تتكوَّن من ثنائيَّة ضديَّة تضع الشَّاعر الغربي والعربي على طرفي نقيض لتُؤجِّج النَّار وتُشعِل الثَّورة لدى الشَّاعر العربي.

يُتابع الشَّاعر في تقرير واقع الضَّعف لدى الشَّاعر العربي من خلال الأفعال الكلاميَّة القوليَّة المُكرَّرة " إنَّها مُعجزةٌ " لكنَّ الشَّاعر لا يُريد هنا فقط تقرير الضَّعف من خلال الأفعال الإنجازيَّة، بل يرمي لأبعدَ من هذا وهو إنجاز تأكيد هذا الواقع والتَّحسُّر عليه من خلال اعتماده أداة التَّوكيد "إنَّ" ، فهو يراها استحالة قاطعة أن يقلب الشِّعر واقع الحياة العربيَّة وأن يُغيِّرها تغييراً جذريّاً من الظلام إلى النُور ومن الموت إلى الحياة؛ لأنَّ الفاعل الحقيقي المُؤثِّر وهو الشَّاعر ضعيف مقيَّد وفاقد الشيء لا يعطيه، لكنَّ الشَّاعر وإن أراد هنا دلالة التَّقرير والتَّوكيد والضَّعف والتَّحسُّر من خلال القوى الإنجازية لهذه الأفعال الكلاميَّة " إنَّها مُعجزةٌ" فإنَّهُ يرمي كذلك إلى أفعالٍ تأثيريَّةٍ أخرى في الشَّاعر المتلقِّي تتمثل في نصحه وتحريك همَّته وحثِّه على العمل ليكون شاعراً مؤثِّراً فعَّالاً في الحياة قادراً على قلب الأمور رأساً على عقب، وهذه الدلالات المقصودة المطلوبة من الشَّاعر المُتلقِّي ليست بغريبةٍ على شاعرٍ مثل نزار قبَّاني امتاز بثورته على واقع مجتمعه، فكأنَّما يريد من كلِّ شعراء عصره أن يكونوا نزار قبَّاني الثَّائر على السَّائد والمعهود والمعروف والمغلوط.

يختم الشَّاعر نصَّهُ هذا بثنائيَّة ضديَّة عميقة بناها على النَّفي والتَّوكيد من جهة، وعلى الشَّاعر الغربي والعربي من جهةٍ أخرى من خلال الأفعال الكلاميَّة القوليَّة:

(نحنُ لا نكتبُ مثلَ الشَّاعر الغربيِّ شعراً /إنَّما نكتبُ يا سيِّدتي، صكَّ انتحارْ)، و التَّضاد هنا لا يقف عند الأفعال القوليَّة بل يتعدَّاها إلى القوى الإنجازية المُتضمَّنة في تلك الأفعال القوليَّة، بمعنى أنَّهُ كامنٌ في عمقِ التَّركيب الضِّدِّي ويلوح في أفق دلالته وتأوليه، فالأفعال الإنجازيَّة هنا تقريرية بين طرفي النَّقيض لكنَّها من جهة، تفيد مدح الشَّاعر الغربي وتحسين صورته بسبب أشعاره الحرة التي أخفى

أوصافها الشَّاعر مُكتفِياً بقوله "شعراً"، تاركاً للسياق السَّابق الدلالة على مراده ومقصدهِ، ومن جهةٍ أخرى تفيد تأكيد تردِّي واقع الشِّعر العربي وتقبيحهِ والتَّحسُّر على حرية الرَّأي وإظهار ضعف الشَّاعر العربي، فشعره صك انتحارٍ لهُ ويتَّضحُ ذلك أيضاً بقرينة السِّياق السَّابق، فهو شاعرٌ مقيَّدٌ ضعيفٌ، فإذا ما أراد حريَّة القول فهو كمن حفَرَ قبره بيده، والشَّاعر هنا وهو يرسم هذه الصورة الضعيفة للشَّاعر العربي، إنَّما يعمدُ إلى أفعالٍ تأثيريَّةٍ تختبئ وراء هذه الأفعال القوليَّة وتتمثَّل في نصحه وإرشاده إلى الثَّورة على واقعه وتغييره ليصبح كما هو الشَّاعر الغربي حرَّاً طليقاً.

2_ التَّوجيهيَّات:

إنَّ اطِّلاعاً على ديوان نزار قباني السياسي يُظهِر أنَّهُ يَندرُ بالتوجيهيات، فلا يهتم الشَّاعر بها بقدر اهتمامه بالإخباريات، فقد وجَّه الشَّاعر أوامره وإرشاداته ونصائحه في معظم ديوانه تلميحاً لا تصريحاً من خلال القوى الإنجازية والأفعال التَّأثيريَّة لمعظم الأفعال الكلاميَّة، أمَّا التَّوجيهيَّات بحد ذاتها فقد وقفنا عليها في بعض المواضع[1]، وكانت في معظم الأحوال تأتي متداخلةً مع الأفعال الكلاميَّة الأخرى ضمن النَّسيج النَّصِّي، باستثناء نصِّه " النَّصائح الذَّهبيَّة .. في أدب الكتابة النَّفطيَّة" الذي خصَّصه للتَّوجيهيَّات عموماً، إذ يقول فيه:

((لو شاءت الأقدارُ أن تكونَ كاتباً
يجلسُ تحت جُبَّةِ الصَّحافة النَّفطيَّه.
فهذه نصائحي إليكْ :
1_ أُدخُل إلى مدرسةٍ تُعلِّمُ الأُميَّهْ.
2_ أُكتُبْ بلا أصابعٍ.. وكُنْ بلا قضيَّهْ.
3_ اِمسَحْ حذاءَ الدَّولةِ العَلِيَّهْ.
4_ اشطِبْ من القاموسِ كلمةَ الحُريَّهْ.
5_ لا تتحدَّثْ عن شؤون الفَقْرِ، والثَّورة،
في الشَّوارعِ الخَلْفيَّهْ.
6_ لا تَنتقدْ أجهزةَ القَمْعِ، ولا تَضَعْ
أنْفَكَ في المسائلِ القوميَّهْ.

[1] _ يُنظَر على سبيل المثال:
_ الأعمال السياسية الكاملة، نزار قبَّاني، الجزء السادس، ص253_255، ص269_288، ص406_408، ص440، ص485_497

7_ كُنْ غامضاً .. في كلِّ ما تكتُبُ،
والِزَمْ مبدأَ التَّقيَّهْ.
8_ خَصِّصْ عَمُودَكَ اليوميّ للأزياءِ ..
والأزهارِ .. والفَضَائحِ الجنسيَّهْ.
9_ لا تتذكَّرْ أنبياءَ القُدْسِ .. أو تُرابَها ..
فإنَّها حكايَةٌ مَنْسِيَّهْ.
10_ لا تَرثِ بيرُوتَ التي ترمَّلَتْ
فالقتلُ فيها عادةٌ يوميَّهْ.
11_ لا تتعرَّضْ للسَّلاطين إذا تَعهَّروا ..
أو قَامَرُوا .. أو تاجروا .. فهذهِ مسألةٌ شخصيَّهْ
12_ ولا تقُلْ لحاكمٍ : إنَّ قِبابَ قصرهِ
مصنوعةٌ من جُثَثِ الرَّعيَّهْ ...))[1]

يبثُّ الشَّاعر في نصِّه هذا كوكبةً من النَّصائح للكاتب الصَّحفي في البلاد العربية التي أشار إليها بالقرينة اللفظيَّة "النَّفطيَّة"، ولعلَّه أدرج هذه اللفظة في إشارةٍ منه لبعض الدول العربية الثَّريَّة التي كان ثراؤها طامساً كثيراً من مظاهر الإنسانيَّة والعروبة والحريَّة فيها، فعبَّر الشاعر عن غياب هذه المظاهر فيها بسبب غطرسة الحكومات وتطبيعها تلميحاً مُعتمِداً جملةً من النَّصائح والإرشادات انطوت جميعها تحت أفعال الأمر والنَّهي.

1_ ففي النَّصيحة الأولى ينصح الشَّاعرُ الصحفيَّ بدخول مدرسةٍ لتعليم الأميَّة، والفعل الكلامي القولي "اُدخل" يخرج عن كونه أمراً إلى كونه فعلاً إنجازياً دالّاً على النَّصيحة بقرينة السياق السَّابق، كما أنَّهُ يُشير إلى فعلٍ إنجازيٍّ آخر هو التَّحقير والإهانة عندما جعل المدرسة العربية تُعلِّمُ الأميَّة بدل أن تمحوها، فهي إهانةٌ وتحقيرٌ لواقع التَّعليم العربي القائم على التَّسييس المُمَنهَج الذي يُحارب الإنسان الواعي لما يدور حوله، فكان لا بدَّ لهذا التَّعليم من طمس الأذهان بدل إنارتها، والشَّاعر هنا إنَّما يرمي إلى فعلٍ تأثيريٍّ يتمثَّل بتحريض المثقَّف العربي عموماً والصحفي خصوصاً على واقع التَّعليم في بلاده والثَّورة ضدَّهُ ليعودَ إلى المسار الصَّحيح.

[1] _ المرجع نفسه، ص253_255

2_ في النَّصيحة الثَّانية ينصح الشَّاعر الصحفيَّ بالكتابة من دون أصابع وهذا الفعل القولي ظاهرهُ استحالة لأنَّ فعل الكتابة يكون بالأصابع، فهل أراد الشَّاعر فعلاً إنجازيَّاً تعجيزيَّاً؟ نعم لقد أراد الشَّاعر هنا تعجيز الصّحفي من جهةٍ؛ لاستحالة التَّعبير عن حرية الرأي في البلاد العربية، كما أنَّهُ أراد تحذيرهُ؛ لأنَّ حريَّة رأيه ومصداقيَّته الصَّحفيَّة ستكون سبباً في بتر أصابعه في بلاده، بلاد الطغيان والغطرسة، وهو بهذا إنَّما يرمي إلى فعلٍ تأثيريٍ في ذلك الصَّحفي وهو ضرورة التَّعبير عن حرية الرَّأي والمصداقيَّة الصّحفيَّة تلميحاً غيابيَّاً لا تصريحاً من جهة، وضرورة الثَّورة على هذه الحكومات المُتغطرِسة الكابتة لشعوبها من جهةٍ أخرى.

أيضاً ينصحه بأن يتجرَّد من القضايا في محاوره الصحفيَّة، والمقصود هنا بالقضايا بالتَّأكيد هي القضايا الوطنيَّة والقوميَّة بقرينة السِّياق اللاحق، والفعل القولي الكلامي هنا "كن" إنَّما يُشير إلى فعلٍ إنجازيٍّ آخر يتجسَّد في الإهانة والتَّحقير؛ لأنَّه يُفرِّغ هذه المهنة النَّبيلة من أعظم رسائلها وهي الهمُّ الوطني والقومي، وهو بهذا الفعل الكلامي "كن بلا قضيَّة" إنَّما يرمي إلى فعلٍ تأثيريٍّ في المتلقِّي يقوم على نقيض الظَّاهر، فكأنَّهُ يحرِّضهُ حتى لا يتخلَّى عن القضايا الوطنيَّة والقوميَّة.

3_ في النَّصيحة الثَّالثة يبدو من ظاهر الفعل القولي أنَّ الشَّاعر يُوجِّه الصِّحفي ليكون خانعاً ذليلاً لدولته، وفي هذا قوة إنجازيَّة دالَّة على التَّحقير والإهانة لصحفيّي العرب لانقيادهم لقياداتهم السياسية العليا ذلّاً وضعفاً، إلَّا أنَّ هذه النَّصيحة تحملُ بعداً تأثيريَّاً في الصحفي المُتلقِّي قائماً على تحريضه وإشعال همَّته ليتمرَّد على قياداتِ دولته المُستبِدَّة.

4_ في النَّصيحة الرَّابعة يتعمَّد الشَّاعر إهانة الصحفي وتحقيره من خلال القوة الإنجازية للفعل القولي "اشطب"، بمعنى أنت جبان غير قادر حتَّى على النطق بهذه الكلمة في مقالاتك، ومن هذا الفعل الإنجازي ينبثق فعلٌ تأثيريٌ يُحرِّض الصحفي ليكون حرَّاً قولاً وفعلاً.

5_ في النَّصيحة الخامسة ينهى الشَّاعرُ الصحفيَّ عن تناول القضايا الأساسيَّة الاجتماعية والسياسية كالفقر والثورة، لكنَّ هذا الفعل القولي يحمل بعداً إنجازيَّاً آخر يتمثَّل في التَّوبيخ؛ لأنَّهُ يجرِّد الصحفي من أهم محاور عمله وهو طرح القضايا الاجتماعية والسياسيَّة وكأنَّ الشَّاعر بنصيحته هذه يجعل مهنة الصحافة بلا معنى ولا غاية، وفي هذا دلالة تأثيرية موجَّهة إلى أعماق الصحفيين العرب لئلَّا يتخلَّوا عن جوهر مهنتهم الرَّئيس.

6_ في النَّصيحة السَّادسة تُوجِّه الأفعال القوليَّة الماثلة في تراكيب النَّهي الصحفيَّ إلى تجنب التَّعرُّض لغطرسة القيادات العربية، والابتعاد عن تناول القضايا القوميَّة، وفي هذا إمعانٌ في إذلال الصحفي العربي وتحقيرِهِ؛ لأنَّ هذا النَّهي جاء بعد سلسلة من الأفعال المحظورة عليه من جهة؛ ولأنَّ المنهيَّات

في هذه النَّصيحة من أكثر القضايا خطورةً في الدول ذات القيادات المُستبِدَّة، وبقدر حِدَّةِ هذه المنهيات في سطح التَّراكيب نرى حدَّة تأثيرها في ماوراء الدلالات؛ لأنها تُفصِح عن أفعالٍ تحريضية تأثيريَّة تهدفُ لتناول منهيَّات ومحظورات تلك القيادات المُستبِدة ومواجهتها.

7_ تبدو النَّصيحة السَّابعة مختلفة نوعاً ما عمَّا سبقها وما سيليها؛ لأنَّ تراكيب الأمر في الأفعال القولية هنا تحمل قوىً إنجازيَّةً ناصحةً مُرشدةً حقَّاً، فالشاعر يوجه الصحفي للغموض اجتناباً للضرر والأذى ولاتقاء شر الحكومات الفاسدة، فبهذا يستطيع أداء مهنته بإخلاص وإيصال رسالته المنشودة بغموضٍ وتخفٍّ من دون التعرض للأذى الناجم عن التصريح والتلقائية المباشرة، وهذه الدلالة الإنجازية الإرشادية تُومئ بفعل تأثيري أراد الشاعر قوله للصحفي يكمن في التَّواري والحذر عند أداء مهامه بعيداً عن التعجيز والسخرية والتحقير...الخ التي رأيناها في النصائح السَّابقة.

8_ لكنَّ الشَّاعر ما يلبث أن يعود في النَّصيحة الثَّامنة إلى السخرية من الصحفي العربي من خلال توجيهه لقصر اهتماماته على الأمور السخيفة كالأزهار والأزياء والفضائح الجنسية، ففعل الأمر القولي "خَصِّصْ" يشير لقوة إنجازية دالة على السخرية؛ لأنه يُقصي الصحفي عن القضايا الأساسية ويجعل عملهُ محصوراً في دائرة ضيقة تُعنى بقشور الحياة، إلَّا أنَّ هذا الفعل الإنجازي يُلمِح لفعل تأثيري آخر يعبر عن توجيهٍ جديدٍ من الشاعر للصحفي، وكأنَّ الشاعر أراد أن يقول له: كُن مؤثِّراً فاعلاً في القضايا الجوهريَّة لمجتمعك ولا تعبأ بسفاسف الأمور.

9_ في النصيحة التاسعة والعاشرة تتجه تراكيب النهي في الأفعال القولية إلى إبعاد الشَّاعر عن تناول القضايا العربية الرَّئيسة في لبنان وفلسطين، وتراكيب النَّهي هذه إنَّما تتضمَّن أفعالاً إنجازيَّةً قائمةً على التحَّقير والتَّوبيخ، إلَّا أنَّ التحقير والتّوبيخ هنا ليس فقط للصحفي، وإنَّما للقيادات العربية التي تخلَّت عن جراح أخوتها وقضاياهم الجوهرية في فلسطين ولبنان، فكأنَّ الشاعر هنا يوجِّه الصحفيين ويقصد القيادات أيضاً؛ لأنَّ معالجة قضايا الحرب الدائرة في البلاد العربية الشقيقة ليست من مهام الصَّحافة فقط، بل من مهام القيادات العسكرية والسياسية في البلاد أيضاً، ويبدو أنَّ الشاعر رمى من خلال هذه الأفعال الإنجازيَّة إلى أفعال تأثيرية في الصحفيين تكمن في توجيههم لتناول هذه القضايا التي غيَّبتها القيادات وعدَّتها أموراً اعتياديَّة طبيعيَّة، علَّ هذا الطرح الصحفي يُحرِّك الضَّمائر القياديَّة العربيَّة النَّائمة ويُسهم في إيقاظها.

10_ في النَّصيحة الحادية عشرة والثَّانية عشرة تتجه الأفعال القوليَّة في تراكيب النَّهي إلى إبعاد الصحفيين عن التعرض لفساد الحكام وظلمهم، وفي هذا النهي قوىً إنجازيَّة قائمة على تحقير الطَّرفين

وتوبيخهما، الحاكم لفساده وظلمه، والصحفي لضعفه، كما أنَّ الأفعال الإنجازية هنا تحمل دلالة التَّنبيه للصحفيين؛ لأنَّ عواقب التعرض للحكام وخيمة، وعلى الرغم من هذا يبدو أنَّ مراد الشَّاعر البعيد هو التَّأثير في الصحفيين وتحريضهم على الحكام، فالثورة تبدأ بشرارة الكلمة.

أخيراً: يُلحَظ من خلال تناول الأفعال القولية والإنجازيَّة والتَّأثيرية في تراكيب الأمر والنَّهي في النَّص السابق أنَّ الأفعال القولية وإن كان ظاهرها الأمر والنَّهي فإنَّ معظمها حمل دلالات إنجازية أخرى كالتَوبيخ والتَّحقير والتَّعجيز والتَّهديد والنصح والإرشاد والتَّنبيه، كما دلَّت على أفعال تأثيرية أخرى مثَّلت المقصد الرَّئيس للشَّاعر وهو الثورة على واقع الصحافة العربية والتَّحريض على قيادات القمع العربية، فالشَّاعر في معظم الأفعال القولية السَّابقة وجَّه الصَّحفيين لأمورٍ وأراد نقيضها في إشاراتٍ منه لضرورة تغيير واقع الصحافة والبلاد العربية، وكأنَّهُ أراد أن يجعل من كل صحفي عربي نسخةً من نزار قباني المُتمرِّد الثَّائر الذي تحدَّى الجميع، وتخطَّى بشعره كل حدود المنهيَّات والمحظورات والممنوعات.

3_ الالتزاميَّات:

لا نقف في ديوان القباني هذا إلَّا على مواضع نادرة دالَّة على أفعال القول الوعدية على الرَّغم من طبيعة القباني الثَّائرة التي تقتضي من صاحبها وتتطلب منه أن يكون مثالاً للعهود والمواثيق المقطوعة لقلب المجتمع رأساً على عقب وتغييره تغييراً جوهريَّاً، إذ نلاحظ أنَّ الشاعر في جلِّ ديوانه ينتقد المجتمع والمواطنين والحكَّام محاولاً توجيه الشعب إلى الثورة على هذا الواقع الفاسد وتغييره، ومن تلك الوعديَّات النَّادرة في ديوانه قوله في قصيدته"استراتيجيَّة":

((سأبقى أُغنِّي ..
سأبقى أُغنِّي..
إلى أن أُحطِّمَ من يَعبدُونَ الفُروجَ..
ومَنْ يشترونَ بشيكَّاتِهِمْ
بَنَاتِ الهوى..
ورجالَ القَلَمْ..
سأَبقَى أُغنِّي
برغْمِ عويلِ الرِّياحِ، وعَصْفِ المَطَرْ
وهم يركُضُونَ وراءَ القصيدةِ،
مثلَ كلابِ الأثَرْ..))[1]

[1] _ المرجع نفسه، ص321

ينهج نزار قباني نهجاً واحداً في معظم ديوانه السياسي؛ إذ يحارب الفساد بكل أشكاله من خلال رسائله السامية التي يبثُّها في أشعارهِ، وفي نصِّهِ هذا لا يخرج عن هذه الرسالة السامية بل يؤكِّدها من خلال تكرار الفعل القولي" سأبقى أُغنِّي .." ثلاث مرَّات، فهو يُكنِّي بفعل الغناء عن فعل كتابة الشِّعر وإلقائهِ، فالشاعر سيبقى كاتباً للأشعار مجابهاً تلك الفئة الفاسدة من المجتمع التي تسير وراء أهوائها الجسديَّة ومصالحها الشَّخصيَّة فتدفع أموالها للعاهرات تحقيقاً للمتعة الشخصية، كما تدفعها لشريحة "رجال القلم" وهم الكتاب والمفكرون والأدباء والمؤرخون والصحفيون...إلخ، الذين يُسهمونَ بقلمهم في تلميع صورة تلك الفئات الفاسدة من العصابات والقادة وأصحاب النفوذ والثروات ليظهروا بأبهى حلة وأحسن صورة أمام فئات المجتمع الأخرى، لتكون حرب القباني معهم هنا حرب قلمٍ لقلمٍ وكلمةٍ لكلمةٍ؛ فهو لا يحاربُ الفاسدين فقط، بل من يُجمِّلُ صورتهم من رجال القلم أيضاً، والأفعال القوليَّة التي يوظِّفها القباني هنا " سأبقى أُغنِّي .." إنَّما تتضمَّنُ أفعالاً إنجازيَّةً أراد بها أن يَعِدَ الشعب بمتابعة مسيرة الكفاح ضد الفساد، ووضْع نفسه موضعَ من يقطع عهوداً ومواثيقَ على نفسه باستمرارية تلك المجابهة على الرغم من كل الصعوبات والأصوات المعادية لنهجه، وهو إذ يكرر هذه الأفعال القولية ثلاث مرات إنَّما يؤكد إصراره على متابعة النضال من جهة، كما يرمي إلى أفعال تأثيرية في المتلقين مفادها تنبيههم واستثارتهم ليَعُوا حقيقة الفاسدين في مجتمعهم ويحاربوها، وتبدو قوة العهود والمواثيق التي يقطعها القباني على نفسه في هذه الوعديَّات من خلال تضافر عدة دلالاتٍ وهي:

_ دلالة التوكيد الناجمة عن تكرار الوعد " سأَبقَى أُغنِّي" ثلاث مرات.

_ دلالة الاستقبال الناجمة عن التسويف في حرف السين، والوعد يقتضي أفعالاً استقباليَّة لا ماضية أو حاليَّة.

_دلالة الثبات على نفس الموقف النابعة من معنى الفعل "أبقى".

_ دلالة قوة العزيمة المُتَّضِحة من خلال استمرارية المواجهة بالرغم من العقبات في نهاية المقطع الشعري.

_ دلالة الثقة بالنفس من خلال استهزاء الشاعر بخصومه عندما وصفهم ب" كلابِ الأثَرْ".

ومن الوعديَّات أيضاً ما جاء في قصيدتهِ "محاولةٌ تشكيليَّةٌ لِرَسْمِ بيروت":

((عندما ترجعُ بيروتُ إلينَا
بالسَّلامَهْ..
عندما ترجعُ بيروتُ التي نعرفُها

مثلما ترجِعُ للدَّارِ الحَمَامَهْ..
سوفَ نرمِي في مياهِ البحرِ
أوراقَ السَّفَرْ..
وسنستأجِرُ كُرسِيَّينِ في بيتِ القَمَرْ..
وسَنقضي الوقتَ،
في زرع المَواويلِ ..
وفي زرعِ الشَّجَرْ))[1]

ففي هذا النَّص نرى أنَّ الأفعال القوليَّة (سوفَ نرمِي، سنستأجِرُ، سَنقضي) تتضمَّنُ أفعالاً إنجازيَّةً وعديَّةً؛ لأنَّ الشَّاعر يَعِدُ المتلقي بتمزيق جوازات السَّفر، والعودة إلى ديار بيروت وإحيائها من جديد، وهو بهذه الأفعال الإنجازيَّة إنَّما يرمي إلى أفعالٍ تأثيريةٍ في المتلقِّي تتمثل في بعث روح الأمل والتَّفاؤل في قلبه من جديد بأنَّ الحرب الأهليَّة والفتنة ستنتهي في بيروت وستُبنى بيروت من جديد بسواعدِ أبنائها ومُحبِّيها، إلَّا أنَّ الوعديات في هذا النَّص تبدو أضعف ممَّا هي عليه في النص السابق "استراتيجيَّة"؛ لأنَّ الوعديات والمواثيق هنا مرهونة بخروج بيروت من الحرب الأهلية وسلامتها من الفتنة، ولو أنَّ الشاعر جعل تلك العودة إلى بيروت وتلك الوعديات من دون شروطٍ مُسبَقةٍ لكان ذلك أوقَع في نفس المتلقِّي وأعظمَ تأثيراً؛ فالعهد حينئذٍ سيكون مقروناً بالتَّحدي كما في نص "استراتيجيَّة" و واقعٌ لا محالة، وليس مشروطاً بتغيُّر الظروف، فهذا الشرط أَضْعَفه في نفس المتلقي؛ لأنَّهُ ربما يفي بوعده في حال تحقق الشرط، وربما لا في حال عدم تحقُّقِهِ.

4_ التَّعبيريَّات:

نقفُ في نص نزار قباني على أنماطٍ شتَّى من التعبيريات يُفصحُ من خلالها عن حالته النَّفسيَّة، وتتنوَّع هذه الإفصاحات ما بين الشكر والمواساة وعبارات التَّهنئة والاعتذار، إلَّا أنَّ القوى الإنجازية لهذه التَّعبيريات قد تُشيرُ مباشرةً إلى مقصد القبَّاني ومرماه، وقد تخرج عن ظاهر القصد المرسوم لها المُترائي للمتلقِّي، لِتُشير إلى أفعالٍ إنجازيَّةٍ محدَّدةٍ تخدم الرسالة السَّامية التي يبثُّها القباني في ديوانه ويحملُ عبأها في جلِّ قصائده، فمن أفعال الشكر الكلاميَّة ما جاء في نصِّه "كُتَّابٌ بِلا أَصَابِعْ":

((شُكْراً .. لِمَنْ يَقرؤُنَا
على امتِدادِ هذهِ الخَريطَةِ الرَّمْلِيَّهْ
شُكْراً .. لِمَنْ يَقْرَؤُنا

[1] _ المرجع نفسه، ص240_241

فِي الغُرفِ السِّرِيَّهْ
فنحنُ كُتَّابٌ بِلا أَصابِعٍ
وأَنبياءٌ دُونَ أَبْجَدِيَّهْ ...))[1]

فالأفعال الكلاميَّة "شُكْراً" تحملُ قوىً إنجازيَّةً مؤدَّاها شكر الشاعر لكلِّ إنسانٍ عربيٍّ يقرأ أشعارهُ وأشعار شريحة الشعراء الرَّافضين لواقع المجتمعات العربيَّة، ويأتي السياق اللغوي هنا قرينةً دامغةً على دلالة الشكر المُرادة المقصودة؛ فهذه القراءة محفوفة بالمخاطر لذا فهي سريَّة من جهة، وتستدعي الشكر من جهةٍ ثانيةٍ، فمن يقرأ هذه الأشعار قد يتمثَّل نهجها فيصبح هو والشَّاعر في ذات المخاطرة وفي نفس الموقع والمسار والاتجاه، وهذا يُمثِّل الفعل التَّأثيري لهذه الأفعال الكلاميَّة، فالشَّاعر يريد من كلِّ قارئٍ أن يصبح نزاراً آخر؛ من هنا فهو يشكره ليشحذ همته ويُشجِّعهُ على المضي قُدُماً في هذه الرسالة السامية، رسالة نقد سلبيات المجتمع ومن ثمَّ قلبها إلى إيجابيَّات.

ومن أفعال العفو الكلاميَّة ما جاءَ في نصِّهِ "كتاباتٌ على جُدْرَانِ المَنْفَى":

((يا سيِّدتي:
أطلبُ عَفْوَكِ ..
إنْ لم أكتبْ في عَيْنَيْكِ قصيدةَ شِعْرٍ
إنَّ العازِفَ نَسِيَ العَزْفَا.
كيفَ أُحِبُّكِ، يا سيِّدتي ؟
إنَّ مباحثَ أمْنِ الدَّولةِ
تُلْقي القَبْضَ على الأحلامِ ..
وتُرْسِلُ أهلَ العِشْقِ إلى المَنْفَى ..))[2]

وما جاء في نصِّه "هذا أنا ...":

((يا سادتي:
عَفْواً إذا أَقْلَقْتُكُمْ
أنا لستُ مُضْطَّراً لأُعْلِنَ تَوْبَتي
هذا أنا ...

[1] _ المرجع نفسه، ص163

[2] _ المرجع نفسه، ص193

هذا أنا ...

هذا أنا ...))[1]

ففعل العفو في النص الأوَّل يبدو في قوله" أطلبُ عَفْوَكِ"، وفي النص الثاني يبدو في قوله: "عَفْواً"، وتبدو المفارقة بينهما في أنَّ الفعل القولي في النَّص الأولَّ يتضمَّن فعلاً إنجازياً مؤدَّاهُ حقيقةً "طلب العفو"، فكما يبدو من ظاهر النَّص فإنَّ الشاعر يستسمح المرأة لأنَّهُ لم يكتب فيها قصيدة عشقٍ خوفاً من سلطات بلاده التي تمنعُ الشعر الغزلي، إلَّا أنَّ الشاعر هنا لا يرمي باطناً إلى التعبير عن خوفه من أنظمة بلاده وقوانينها وعاداتها بقرينة حاله، وسياق نصوصه الشعريَّة ودواوينه، فما هو معروف عنه أنَّهُ شاعرٌ صاحب كلمةٍ حرة جريئة في كل القضايا ولا سيما السياسية والغزلية، وإنَّما قصد من فعل العفو الكلامي إلى فعلٍ تأثيريٍّ في المتلقِّي مؤداه السخرية من واقع بلاده وسياساتها، واستنكار ملاحقتها لأصحاب الكلمة الحرة الجريئة المُنفَتِحة على معطيات الحياة المعاصرة.

أمَّا فعل العفو في النَّص الثَّاني "عَفْواً" فهو يتضمَّنُ فعلاً إنجازياً دالاً على تعظيم الشاعر نفسه من جهة، وسخريته واستهزائه بأصحاب الشأن في بلاده من جهةٍ أخرى، فالشاعر هنا لا يعتذر منهم ولا يستسمحهم، ولا يطلب عفوهم إن أخافتهم أشعاره أو أزعجتهم بقرينة السياق اللاحق الذي يُعبِّرُ فيه عن ثباته على مواقفه الجريئة وأشعاره الحرة ومعتقداته المُعاصرة، ولا يقف مقصد الشاعر هنا على الثنائية المتضادة (تعظيم الذات/ تحقير السادة)، وإنَّما يرمي إلى إسقاطها على المُتلقِّي من خلال الفعل التأثيري الناجم عن الفعل الإنجازي "عَفْواً"، و مفاده حثُّ المتلقي العربي على الثقة بالنفس ومعتقداتها وأفكارها وتحريضه على مواجهة أصحاب الشأن بها بقرينة تكراره "هذا أنا" ثلاث مرات.

أمَّا أفعال المواساة فنقف على نماذج لها في نصِّهِ "أربعُ رسائلَ ساذجة إلى بيروت":

((الرسالة الأولى

يا أصدقاءَ الحزن في بيروتْ:

كيفَ هيَ الأحوالْ؟

نسألكمْ . ونحنُ ندري جيِّداً

سَذَاجةَ السُّؤالْ.

نسألكمْ.

ونحنُ كالأيتامِ في جنازةِ الجَمَالْ.

[1] _ المرجع نفسه، ص332

الرِّسالة الرَّابعة

يا أصدقاءَ الصَّبْرِ، في بيروتْ

قُولُوا لنا:

في أيِّ أرضٍ يزرعونَ الصَّبر؟

قُولُوا لنا:

هل ممكنٌ أنْ تَنْهَضَ الوردةُ من فِراشِها؟

ويستفيقَ العِطْر.

هل ممكن أن ترجعَ الحروفُ من غُرْبَتِها؟

وأنْ يفيضَ الحبرْ.

هل ممكنٌ أنْ نستَعيدَ عُمْرَنا؟

من بعدِ ما هُمْ شَطَبُوا

أجملَ سَطْرٍ في كِتَابِ العُمرْ ...))[1]

ففي الرسالة الأولى تبدو أفعال المواساة الكلامية في ندائه لسكان بيروت وسؤالهم عن أحوالهم وأحوال مدينتهم المنكوبة جراء الحرب الأهلية الدائرة لديهم، فنرى أنَّ الأفعال الكلامية هنا في تركيبي النداء والاستفهام تحمل قوىً إنجازيةً تعبيريةً تؤدي معنى المواساة، كذلك في قوله:

"نسألكمْ..... ونحنُ كالأيتامِ في جنازةِ الجَمَالْ" يخرج هذا الفعل الكلامي إلى قوىً إنجازيةٍ تتضمن معنى المواساة؛ لأنَّ الشاعر هنا يقرن بين سؤاله لأهل بيروت عن الأحوال وما يعيشه أهالي دمشق من حزنٍ جراء تلك الأحوال، فكأنَّهُ يقول لهم مأساتكم مأساتنا، ومصابكم مصابنا، وبذلك فإنَّه يُعبِّر عن مواساته لبيروت وأهلها بمصابهم من خلال ندائهم وسؤالهم عن أحوالهم وجعل مصابهم مصاباً لدمشق أيضاً، ويبدو أنَّ أفعال المواساة هنا تؤدِّي فعلاً تأثيرياً في أهالي بيروت مفادهُ كُونوا أقوياء فقلوبنا معكم، فكأنَّهُ أراد ظاهراً المواساة والدعم النَّفسي لأهالي بيروت، وأراد باطناً شحذ عزيمتهم بالقوة والصلابة.

في الرسالة الرابعة نجد أيضاً أنَّ الأفعال القولية في تراكيب النداء والاستفهام تحمل أيضاً قوىً إنجازيةً تتضمن معنى المواساة، إلَّا أنَّ هذه القوى الإنجازية تؤدِّي أفعالاً تأثيريةً في المتلقين وهم أهالي بيروت، وفحوى هذه الأفعال التَّأثيرية حثَّهم على الصَّبر والأمل، فالشَّاعر يحثُّهم أن يصبروا على مُصابهم عندما

[1] _ المرجع نفسه، ص235_ 239

يُخاطبهم ب"أصدقاء الصَّبر" ويسألهم أين يُزرَعُ الصَّبر، ويحثُّهم أن يتيقَّنوا بأنَّ الواقع المأساوي الحالي سيتغيَّر، فتُشرقُ الزهور من جديد، وتنطلق الأشعار، وتتجدَّد الذكريات القديمة السعيدة.

وبذلك فإنَّ الأفعال القولية في كلا الرِّسالتين تحمل قوىً إنجازيَّةً تتضمَّن معنى المواساة، إلَّا أنَّ القوى الإنجازيَّة في الرسالة الأولى تؤدي أفعالاً تأثيريةً في المتلقين تتمثل في حثِّهم على القوة، وفي الرِّسالة الرَّابعة تؤدِّي أفعالاً تأثيريَّةً في المتلقين تتمثَّل في حثِّهم على الصَّبر والأمل بتغيير الواقع نحو الأفضل.

5_ الإعلانيَّات (التَّصريحيَّات) :

تشمل هذه الأفعال نطاقاً واسعاً من الأفعال الكلامية مثل أفعال: الزواج والطلاق، والبيع والشراء والإجارة، والإنكار والإقرار، والوكالة والدعوى والقذف، والوصية والهبة والوقف، والتنازل عن الحق، والإبراء من الدين، والقرارات القانونية الصادرة عن الجهات الرَّسميَّة، والنَّصر والهزيمة، وبمجرد النطق بهذه الأفعال فإنَّها تقع، لدرجة أنَّ أفعالاً منها تقع وإن كان المتكلم هازلاً بكلامه[1]، فهي تُحدِثُ تغييراً في الوضع القائم بمجرد النطق بها[2]، فما كان قبلها ليس كما هو حاصل بعدها، وبذلك فإنَّها تقتضي عرفاً غير لغوي، وفي نص نزار قبَّاني نقعُ على نماذج عديدة منها، فمن القرارات الرسَّميَّة ما جاء في نصِّهِ "خَبَرٌ ثقافيٌّ":

((هذا بلاغٌ من بَلاطِ صاحب الجلالَهْ:

الأَخْضَرِ اليَدَينِ.. والمُكتَمِلِ الصِّفاتِ.. والمُبجَّلِ الأَلقَابْ.

تَحَسُّساً مِن ملكِ الملوكْ

بحاجةِ الشَّعبِ إلى العَدالَهْ ..

والخُبْز .. والثيابْ ..

فقد رَسَمْنَا ما يلي:

يُطْلَبُ من وزارة التِّجارَهْ

أنْ تمنعَ استيرادَ أيّما كتابْ

وتُقنِعَ التُّجَّارَ أنْ يستورِدُوا النِّخَالَهْ ..))[3]

---

[1] _ تداولية الأفعال الكلاميَّة في ضوء تصنيف جون سيرل "شعر الطغرائي نموذجاً"، علي سالمى & مصطفى المحياوي ، مجلة بحوث في اللغة العربية، نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات بجامعة أصفهان (خريف وشتاء 1446ه / 1403 ه.ش)، العدد 31، ص153

[2] _ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص52

[3] _ الأعمال السياسية الكاملة، نزار قبَّاني، الجزء السادس، ص205

فهذا النَّص يُمثِّل قراراً رسمياً صادراً عن سموِّ الملك، ويبدو أنَّ الأفعال الكلاميَّة الإعلانيَّة تتواردُ على ثلاث مراحل تِباعاً في النَّص وفق الآتي:

1_ الإخبار بأنَّهُ بلاغٌ ملكيٌّ في السَّطر الأوَّل.

2_ دوافع الملك إلى إصدار القرار في السطر الثالث والرابع والخامس.

3_ فحوى القرار ومضمونهُ في الأسطر السادس والسابع والثامن والتاسع.

فقد تضمَّنت الأفعال القوليَّة في هذه المراحل الثلاث أفعالاً إنجازيَّةً إعلانيَّةً؛ إذ أعلنَ الشاعر بدايةً أنَّ البلاغ صادرٌ عن الملك، ثم أعلن عن أسباب صدور القرار وهي إحساس الملك بمعاناة شعبه وحاجتهم إلى أساسيات الحياة وهي الخبز والثياب، ثمَّ أعلنَ أخيراً عن مضمون البلاغ فهو ينصُّ على منع استيراد وزارة التجارة للكتب، وإقناع التُّجَّار باستيراد المواد الغذائية وغيرها من متطلبات الحياة.

إلَّا أنَّ الشاعر القباني المعروف بمناهضته للحكام واستبدادهم لم يقصد فعلاً من نصِّه هذا إعلان مرسومٍ ملكيٍّ سواءً أكان حقيقيَّاً، أم كان من صناعة مخيِّلته، وإنَّما قصد من هذه الأفعال الإنجازية الإعلانيَّة التَّصريحيَّة أفعالاً تأثيريَّةً أخرى، وهي الاستهزاء بالملك من خلال الأوصاف التي أسبغها عليه في السطر الثاني، فهذه الصفات تتراءى لعامة الشعب لكنَّ الحقيقة هي النَّقيض، كما قصد استنكار غطرسة الملك وغباء الشَّعب من خلال ما أورده لاحقاً من أنَّ سبب إصدار القرار هو شفقة الملك على شعبه وإحساسه بمعاناتهم وحاجاتهم لأساسيَّات الحياة، كذلك قصد فضح الملك من خلال ما أورده في نص القرار أخيراً من جهة منع استيراد الكتب حتى لا يستنير الشعب ويصحو من غفلته، والسماح للتجار فقط باستيراد المواد الأساسية كالأغذية والملابس وهذا جانب من جوانب سخرية الملك من شعبه، فهو ينظر إليهم كالقطيع بحاجة للطعام لكنه ليس بحاجة لليقظة والفكر، وبهذا يتَّضح أنَّ ظاهر النَّص مرسومٌ ملكيٌّ صدر انطلاقاً من حب الملك لشعبه، لكنَّ باطنه يُعرِّي الحقائق ويكشف زيفها، فيفضح غطرسة الملك وغباء الشعب ويسعى لإيقاظ الشعب من غفلته.

ومن البلاغات الرَّسميَّة أيضاً ما جاء في نصِّهِ "السيرةُ الذَّاتيَّةُ لسيَّافٍ عربيٍّ":

((أيُّها النَّاسُ:

لقد أصبحتُ سُلْطاناً عليكُمْ

فاكْسِرُوا أصنامكُمْ بعدَ ضلالٍ،

واعْبُدُوني ..

إنَّني لا أتَجَلَّى دائماً

فاجْلِسُوا فوقَ رصيفِ الصَّبْرِ ،
حتَّى تُبْصِرُوني .))[1]

فالنَّصُّ عبارةٌ عن بلاغٍ رسميٍّ من السَّيَّاف إلى الشَّعب يُخبرهم فيه بأنَّهُ أصبح سلطاناً عليهم، وقد جاءت الأفعال القوليَّة في السطر الأوَّل والثاني تحمل قوىً إنجازيَّةً تتضمَّن معنى التَّصريح من خلال الإعلان عن استلام السلطة من قِبَل هذا السَّيَّاف، كما جاءت الأفعال القوليَّة في بقية النَّص تحملُ قوىً إنجازيَّة تتضمَّن التّصريح بعظمة هذا السلطان، فمنزلته الرَّفيعة تستوجبُ الطاعة العمياء، ولقاؤهُ أمرٌ نادرٌ يستوجب الاحتمال والصَّبر، إلَّا أنَّ ديدن الشاعر في هذا النَّص شأنه شأن معظم نصوصه، إذ لم يقصد من أفعالهِ الكلاميَّة التَّصريحيَّة الإعلانيَّة هنا مجرد إعلان نص البلاغ الرسمي بتولِّي هذا السَّيَّاف السلطة وإظهار عظمتهِ، بل قصدَ فعلاً تأثيريّاً في المتلقِّي مفاده استنكار غطرسة الحكام وضعف الشعب وانقياده الأعمى لهم من جهة، وتحريض الشعب للثورة عليهم من خلال فضح غطرستهم من جهةٍ أخرى.

ومن الإعلانيات في نص نزار قبَّاني تصريحه بهزيمة حزيران عام 1967 م في قصيدته "هوامش على دفتر النَّكسة 1967":

((أنعي لكمْ ، يا أصدقائي ، اللغةَ القديمهْ ..
والكُتُبَ القديمَهْ..
أنعي لكمْ
كلامَنا المثقوبَ كالأحذية القديمَهْ..
ومُفْرداتِ العهرِ ، والهجاءِ ، والشَّتيمهْ
أنعي لَكُمْ ..
أنعي لَكُمْ ..
نهايةَ الفكر الذي قادَ إلى الهزيمهْ ..))[2]

فالشَّاعر يُعلن في نصِّه هذا عن هزيمة حزيران عام 1967 م من خلال الفعل القولي "أنعي لكم" الذي كرَّرهُ أربع مراتٍ مُعبِّراً من خلاله عن أفعالٍ إنجازيَّةٍ تصريحيَّةٍ تتضمن معنى الهزيمة وتوحي بها، فهو إذ ينعي اللغة القديمة، والكتب القديمة، والكلام المثقوب ومفردات العهر والهجاء والشتيمة والفكر العربي،

[1] _ المرجع نفسه، ص269

[2] _ المرجع نفسه، ص473

فهو لا يرثي هذه الأشياء وإنَّما يستنكرها رافضاً واقع المجتمع العربي الذي ساق العرب إلى هذه الهزيمة، ساعياً من خلال إعلان نعوة هذه المرثيّات إلى التَّأثير في الإنسان العربي علَّهُ يُغيِّرُ واقع أمَّته فتستحيل الهزيمةُ نصراً.

9_ نتائج البحث:

1_ يتَّضح من خلال تصنيفات أوستن وسيرل أنَّ بإمكاننا تطوير نظرية الخبر والإنشاء، من خلال إعادة تصنيف التراكيب الخبرية والإنشائية وأغراضها ووضعها في قالبٍ جديدٍ يجمع بين الدراسة البلاغية العربية والدراسة التداولية الغربية، فتقسيمات أوستن للأفعال الكلامية إلى أفعال إخبارية وأدائية تتوافق مع تقسيمات التراثيين العرب للتراكيب إلى خبرية وإنشائية؛ من جهة كون الأفعال الإخباريَّة والتراكيب الخبريَّة يمكن وصفها بأنَّها صادقة أو كاذبة، والأفعال الأدائيَّة والتراكيب الإنشائيَّة لا يمكن وصفها بأنَّها صادقة أو كاذبة، كما أنَّ التراكيب الخبريَّة تندرج ضمن ما أسماه سيرل الإخباريات والالتزاميَّات والتَّعبيريات والإعلانيَّات، كما تندرج التراكيب الإنشائيَّة ضمن ما أسماه سيرل التَّوجيهيَّات، وبذلك فإنَّ التراكيب الخبرية أكثر تفنيداً لدى سيرل، في حين أنَّ التراكيب الإنشائيَّة أكثر تفنيداً لدى البلاغيين العرب.

2_ يتوافق التقسيم النهائي للفعل الكلامي لدى أوستن مع التراكيب الخبرية والإنشائية وأغراضها البلاغيَّة لدى التراثيين العرب، ففعل القول (الفعل اللغوي) لدى أوستن يتوافق مع التراكيب الخبرية والإنشائيَّة، وما عهدناها من أغراض بلاغية لدى البلاغيين العرب نراها بشكلٍ مشابهٍ لدى أوستن مُوزَّعة وفق تصنيفين هما: "الفعل الإنجازي /الفعل المُتَضَمَّن في القول" وهو الغرض الإنجازي الناجم عن الفعل القولي، و"الفعل التَّأثيري /الفعل الناتج عن القول" وهو تأثير الفعل الإنجازي في المتلقي، وبهذا يتميَّز تصنيف أوستن عن تصنيف البلاغيين العرب في مراعاته حال المتلقِّي في التصنيف الثالث خصوصاً، في حين وردت الأغراض البلاغية للتراكيب من دون تخصيص لدى التراثيين العرب، ليبدو تصنيف أوستن مجرَّد إعادة تصنيف لتلك الأغراض البلاغيَّة. وربَّما تتأتَّى هذه المفارقة بين الدراسة العربية والغربية بسبب عناية الدراسات العربية بالمعاني والدلالات أكثر من الجانب التَّواصلي بحدِّ ذاته عند

تحديد الأغراض، في حين ركَّزت الدراسات التَّداولية على الدلالات والتَّواصل وتأثير الأفعال الكلاميَّة في المتلقي عند تحديد القوى الإنجازية وتأثيراتها على المتلقي، وهذا بالتَّأكيد لا يعني إغفالنا عناية البلاغيين العرب بدور المتلقِّي في العملية التواصليَّة، فقد بدت عنايتهم به واضحةً خصوصاً في تقسيم الخبر إلى ابتدائي وطلبي وإنكاري، كذلك في معظم محاور نظرية عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وإنَّما أردنا أنَّ طريقة التَّقنيد والتَّصنيف للأفعال الكلاميَّة لدى التداوليين الغرب انطلقت من العناية بدور المتلقِّي بشكلٍ أساسي.

3_ في كثيرٍ من النصوص المدروسة لنزار قباني في هذا البحث مثَّلت الأفعال التَّأثيرية المقصد الرئيس للشاعر، وكانت القوى الإنجازية مجرَّد أغراضٍ إنجازيَّةٍ تُعبِّدُ الطريق وتُمهِّدُ السبيل لتحقيق الغاية المرجوة، فلم يكن المقصد المنشود في معظم هذه النصوص هو القوة الإنجازية الكامنة في النصح أو الإرشاد أو التقرير أو الوعد أو السخرية ...إلخ، وإنَّما تمثَّل في تنبيه المتلقِّي وتحريضه لتغيير الواقع والثورة على معطياته ومجابهة الحكام والفاسدين، وهذا جوهر رسالة نزار قباني في ديوانه السياسي هذا، فقد كان رافضاً لواقع الحياة العربية الاجتماعية والسياسية والثقافية، فجاء شعره مُنتقِداً الواقع مُحارِباً إياه بالكلمة الحرة والمعاني الصريحة حيناً، المتوارية حيناً آخر، وكان المتلقي العربي هو المستهدف بشعره هذا.

4_ استبان بالدراسة التحليلية أهمية السياق ومعطيات النص وملابساته وقرائنه في تحديد القوى الإنجازية، والأفعال التَّأثيرية، ومقاصد الشاعر التي غالباً ما كانت تتوارى مُبتعِدةً عن ظاهر القصد، وهنا نلمح مفارقةً حقيقيةً بين الدراسات البلاغية التراثية التي وجَّهت عنايتها المركَّزة نحو الأغراض البلاغية، ولا سيما لدى البلاغيين المتأخرين، وتداولية الأفعال الكلامية التي عُنِيَت خصوصا بالدلالات وتأثيراتها ممَّا ساعدَ في الوقوف على قصدية الشاعر المُتوارِية غير المباشرة في كثيرٍ من المواضع.

5_ استبان بالدراسة التحليلية هيمنة الإخباريات على بقية الأفعال الكلاميَّة الأخرى ولا عجبَ في هذا، فمقصد الشاعر في معظم قصائد ديوانه السياسي نقد الواقع وسلبياته والتحريض على تغييره وهذا يقتضي إخباراً يُوضِّح وجهة نظره ويُوصلها للمتلقِّي.

11_المصادر والمراجع:

_ الأعمال السياسية الكاملة، نزار قبَّاني، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، لبنان، الطبعة الثَّانية، 1999م، الجزء السادس.

_ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م.

_ التَّداوليَّة عند العلماء العرب((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي))، مسعود صحراوي، دار الطَّليعة للطباعة والنَّشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005م.

_ التَّداوليَّة من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتَّوزيع، اللاذقيَّة، الطبعة الأولى، 2007م.

_ استراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م.

_علم النَّص(مدخل متداخل الاختصاصات)، تون أ. فان دايك، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م.

_ لحظة ميلاد التَّداوليَّة (نظرية الأفعال الكلاميَّة)، مسعود صحراوي، دار التَّنوير، الجزائر، الطبعة الأولى، 2023م.

ـ المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيّات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الدار البيضاء، 2002م.

ـ النظريَّة البراجماتيَّة اللسانيَّة (التَّداوليَّة)، د.محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2013م.

ـ نظرية الفعل الكلامي (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغويَّة في التراث العربي والإسلامي)، د.هشام عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2007م.

المجلات والدوريات:

ـ التَّأصيل لأفعال الكلام في التراث اللغوي العربي، حليمة بو الرِّيش، مجلة AL-Andalus Magreb، جامعة cades، إسبانيا، العدد 25، 2018م، الموقع الالكتروني للمقال:
http://portal.amelica.org/ameli/journal/475/4753034005/

ـتداولية الأفعال الكلاميَّة في ضوء تصنيف جون سيرل "شعر الطغرائي نموذجاً"، علي سالمى & مصطفى المحياوي، مجلة بحوث في اللغة العربية، نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات بجامعة أصفهان (خريف وشتاء 1446هـ / 1403 هـ.ش)، العدد 31.

ـ نظريَّة الأفعال الكلاميَّة بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداوليَّة، محمد مدور، مجلة الواحات للبحوث والدِّراسات، العدد 16، 2012م.